الفصل الثالث

اليقظة والغاية

المدخل :

لم يخلق الله عباده سقطة متاع ورهن إشارة لكل ناعق وناهق ؛ بل استخلفه في أرضه ليقيم العدل بينه وبين أفراد جنسه وسائر الخلق ، ولذا أودع فيهم جل جلاله غريزة التفكير ، وشرع لهم مناكب العلم ، والوعي والإدراك ، ولكنهم قد يبتلون بظرف معين يعجزون فيه عن مواجهة الموقف والتصدي لتحديات القوة الباغية ، وعندئذ يعملون فكرهم ووعيهم وإدراكهم للتخلص من قيود وأغلال تصطنعها فئة طاغية ، وأنه إذا أحسوا في الحرية ، والاستقلال ، والعزة بادروا أول شرارة لزم أن يوقظوها ويجعلوها غاية من غاياتهم ، فيتعاونون بعضهم ببعض للتخلص من العبودية والذل والخسف ، وعلى أن يزداد الأدب الإسلامي رسوخا لهذا المبدإ فيما يوجّهه إلى أتباعه أن لا يقفوا عند حدود العجز والخمول ، وأن يتيقظوا تيقظا ذا هدف جليل وغاية نبيلة ، ولا غرو إذا قام ديوان الإلوري يرصد طاقاته لبث الصحوة المجيدة في أوضاع المسلمين حتى يفيقوا من رقدتهم في ظل الحرية والإنسانية ، وتشع بين طبقاتهم معاني الرأفة ، والحب ، والكرامة ، والعدالة .

اليقظة والصحوة

كان احتلال الإنكليز على نيجيريا صدمة عنيفة ، جثمت على صدور المسلمين كارثة رهيبة ، إذ كانوا هم هدفها الأول قبل غيرهم ، ومردّ ذلك أنهم قد كوّنوا بأنفسهم صيتا قوياً ، وسمعة عالية ، فعاشوا على ذرى شرف من الأمجاد والمآثر الخالدة على نحو ما يلي :

- أقاموا دولة زاهية أظلت الناس تحت لوائها ، كأسنان المشط ، رعاة ورعية ، فتكاتف الجميع على بناء السؤدد .
- جعلوا للعلم مناكب عديدة تسهل على الطلاب اغتنامها من أقاصي البلاد وأدانيها ، وقدّر الأساتذة أمانة الله .
- أشادُوا بالقيم والأخلاق ما وضع مجتمعهم وضعا مثاليا في الأمن والرخاء ، فزالت الخيانة والجور .
- نظموا دقة تنظيم سبل العيش ، وكانت حدودهم وثغورهم الداخلية والخارجية مأمونة مما هيأ بينهم تبادل المنافع والمصالح .
- راعوا حقوق الله ورسوله بين الأغنياء والفقراء ، فقويت بينهم عرى المودة والصفاء ، والألفة ، والرأفة ، فتلاحم كلا الطرفين إخوة متحابين متراحمين ، فحرم أغنياؤهم على أنفسهم الشح ، والبخل ، والبغي ، تحريم فقرائهم على أنفسهم الحقد ، والحسد ، والبغض ، ثم سطت عليهم قوة البغي والظلم سطوة جبار عنيد ، فنكثت قواهم ، وانقلبت على العقب أمورهم ، فأمسُوا غرباء الأرض التي ولدوا فيها ، وعاشوا عليها ، وتقلبوا عبر أحضانها ، وباتت الشريعة الإسلامية التي بنت أمجادهم ، ورفعتهم إلى الصفوف الأولى قادة الحرب وسادة السلم نظما مقصِّرة جوراً وطغياناً ، وأفراد الأمة الذين

يتعاطفون بينهم في ظلال الألفة متراحمين جسداً واحداً قد انحلت عراهم وتشتت شملهم ، وأصبحوا عناصر متناحرة لا يكاد بعضهم يتفاهمون مع بعض ، وبهذا حاولت عصابة الاستعمار إحلال الكناس محل المساجد ، والقساوسة مكان الفقهاء ، والقانون المدني موضع الشريعة ، والإنجليزية موطن العربية ، والداهية الكبرى ؛ أن مظاهر هذه الحياة الحضارية لم تكن صورة من صور التجديد والابتكار في قوانين الطبيعة حتى يتحقق المزيد الناتج من النشاط الإنساني الجيد مضاعفاً للحب والخير ، وإنما هي عبارة عن روافد غربية مستوردة لتدمير الأرض ، والشعب ، والتراث ، ولا بد أن تختل موازين الأدب اختلال موازين الحياة ، لأن الأديب ابن بيئته ، وقد ناهض العلماء هذه الأوبئة ، واتخذوا مناكب عديدة حسب المستويات والأقدار وما اقتضته الظروف والملابسات ، ومنهم من قاوموا الطغيان ، وحملوا السلاح ، ولقوا حتوفهم شهداء ، [1] ومنهم من مالوا إلى الصمت ولم يتكلّموا ضجراً وكرها عن السياسة الخبيثة التي تنتهجها الدولة الأجنبية لا راكنين إليها ، وذلك لأن العي أحياناً أقوى سلاحا من الإفصاح الذي قد يؤدي إلى التهلكة ، يقول العربي :

ولئن نطقت بشكرك مفصحا ولسان حالي بالشكاية أنطق

والتجأ الآخرون إلى فن القول باعتباره أخلد أثر ، وأقوى عارضة لتهييج المشاعر وإثارة عواطف الشعب المنكوب ، وفعلا انطلق الأدباء لتسجيل هذه الحقبة في صورها الأليمة تنفيسا لكربهم وتشفيا لأمراضهم ، متلبسين ثقة كبيرة بأمجاد آبائهم الماضية ، وينطقون بعظمتها ويفتخرون بجلالها ، ويدعون دعوة جريئة إلى إعادتها ، وضرورة الانتفاع بها ، ولا يستنكفون عن بنائها أنماطاً جديدة تواكب روح الحياة الحضارية ، وقد ضحوا بأنفسهم استهانة بكل

---

(1) ومنهم الخليفة الطاهر الأول ، والشيخ عيسى ساتر في صكتو ، وآدم كرا وبنوه من قواد إمارة إلورن ، والأمير أبوبكر ناغواماتنشي أمير منطقة كَوْتَن غَوْرا.

ما يعرضه عليهم الاستعمار من تهجير ، وإقصاء ، وتحقير ، وإفقار ، وضرب ، وحبس ، وتقتيل[1] .

ومن خير من يمثّل تلك النغمة الحزينة ؛ أحمد بن ينما الإلوري ، ونجلا الوزير محمد البخاري الوزيران مشطو ، وجنيد ، وعبد الله جـ.ت الصكتويين ، والقاضي إبراهيم الزكزكي ، والقاضي محمود أبو بكر قومي ، وعلى هذه الشاكلة نلقى الإلوري يقول في لاميته :

يا رب قد ضقت ذرعا بالهموم وقد ... رجوت فضلك يا رحمان لم أزل
أرجوك والحال لا يخفى عليك على ... ما كان بي من حياة البؤس والعطل
لقد تعلمت علم الدين في لغة ... أنزلت فيها كتاب الذكر والمثل
صرفت فيها حياتي من بدايتها ... إلى أواسطها والنفس في شغل
لكن على غير جدوى في الحياة وقد ... ظلت معيشتنا ضنكا على الفشل
وانهار عيش بني الإسلام يا صمد ... كأنهم في ضلال الدين والخطل
أولاك شعب النصارى واليهود لقد ... نالوا حظوظ الدنا من قسمة الأزل
أعطيتهم كل خير في الهواء وفي ... بر وبحر وفي سهل وفي جبل
فما لنا غير قرآن وحكمته ... ونقل كل حديث الخاتم الرسل
هل أجبروك على توفير حظهم ... ومنعنا حظنا حتى من العمل
يا خالق الخلق يا رحمان قاطبة ... يا من يرى ما خفى يا عالم الجمل
إني قصدتك بالنجوى التي كتبت ... على الرجاء الذي قد شِيبَ بالوجل
إن كنت من قال ادعوا أستجب لكم ... فارحم عبيدك ذا النجوى وذا الأمل
أصلح له الحال وارفع مستواه إلى ... أعلى المكان كمن أعليت في زحل

---

(1) ولا يحصى عدد أمراء لقوا استشهادهم ، واتخذوا لوكوجا أجداثهم .

يسّر لـــه العـــيش والأرزاق مســـرعة يا خالق الخلق أدرك صاحب الزلل[1]

إن القيمة الفكرية التي يسوقها الشاعر صدق الاعتداد بالله، وكتابه وهدى رسوله للاستعانة على استرداد العزة، والقوة، ومقاومة الظلم، والطغيان، وتحرير المعيشة من مذلة العبودية والرق، وهذا المعنى الجليل قد جعله الأدب الإسلامي قضية الحياة والمصير، ودعا إلى التعبير الحي القوي عنه.

والثابت أن أداء العلم لمن يحتاجون إليه سنة نبوية كريمة، وكل من اعترض عن تبليغه فقد حقّ عليه الجهاد، ولا يتمّ تحرير فئة من الناس إذا ظلّ تراثهم في قيد هواة الاحتلال، وقد نادى الإسلام أمته إلى التحرّر الشامل، وحرّضهم على اقتحام ميادينه مهما كلّفهم من دم ومال إذ المخلوق لا يزال مفتقرا إلى خالقه، فلما يستعبد بعضهم بعضا على أساس التفاوت في ظاهرة من ظواهر الحياة فتتمتع طائفة بحقوق كاملة وهي محرّمة على أخرى بدافع الحقد، والحسد، والطغيان، فتضيع الثقة بينهم، وتعمهم الشرور والأضرار.

وهذا المعنى الجليل هو الذي حدا الشاعر إلى تسجيل ما تحيّز في صدره بهذا الإبداع القولي، وهو يؤتي صورة مناهضاته الطويلة ضد الاستعمار الإنكليزي وأعوانه المخدوعين، ويقول:

كانت دعوتنا منذ عام ١٩٤٧م قائمة على إيقاظ الوعي الإسلامي، وتوحيد صفوف العلماء لإيجاد القوة وتحقيق التعاون على البر والتقوى، والعمل على إصلاح حال الأمة الإسلامية بغرب أفريقيا، ونحن نلمس تأخر المسلمين وتقدم غيرهم، وتفرق المسلمين وتودد غيرهم[2].

على هذه الشاكلة من الانهيار النفسي، والديني، والاجتماعي، والسياسي، صاغ الاستعمار حياتنا صياغة التخلف فأصمّ منّا منافذ الوعي، وأورثنا التمزق،

---

(1) الأستاذ ثوبان بن آدم، لامية الإلوري محفوظ بمكتبة الكاتب.

(2) الإلوري، الدين النصيحة. ص: ١٠.

وأوقع فينا نار العداوة ، فلزمتنا العودة إلى أبعد الوراء عما بدأنا ، وقد كنا قبل نهضة الاستعمار في بلاده أمة عظيمة ، صبغنا الإسلام بصبغة الله ، فأصبحت مناطقنا نشطة ذات أمجاد أصيلة ، فأقمنا ممالك وحكومات ، وأنجبنا عباقرة وأساطين رفعوا هامة البلاد إلى القمة الإنسانية ، فدخلنا في حرمة الرقعة الإسلامية العظمى التي تمتد من فرغانة إلى غانة .

تلك الهموم التي تنتابه في هذه القطعة النثرية ، وهي ذاتها الفكرة التي تراوده في جميع فنونه ونشاطاته لا في هذه القصيدة ، ولها من العمق والتأثير ما يهبها ابقاء والقوة حيث كان بين النصَّينِ سبع سنين ، وخلال ذلك ناضل الاحتلال الإنكليزي لتحرير الأمة الإسلامية ، ونازل أعوانه منازلات عنيفة في مواقع الغزو الفكري والصراع البياني من إلحادية ، وعلمانية ، واستشراقية ، واستغرابية ، وغيرها من المبادئ والمخططات الهدامة ، وجعلته الهمة عزيزاً كريما أبيّ النفس لا يخضع ولا يركع لمظاهر الجاه والمال والرئاسة أمام علية القوم أمرء ، وملوكا ، ورؤساء ، ووزراء ، وحكاماً ، ما داموا لا يزالون يشكلون أحابيل البغي والظلم ، فغدا قانعاً بما رزقه الله ملتجئا إليه ـ جلّ شأنه ـ في معتركات الحياة وصروفها ، ونلمس هذا الإحساس العظيم في مطلع القصيدة :

يا رب قد ضقت ذرعا بالهموم وقد رجوت فضلك يا رحمان لم أزل

ألا ترى روح الحرية بارزة حيث مال الشاعر إلى مولاه لا إلى الناس ولم يرج إلا فضله ، فهو فكرة تروج لدى الأدباء الإسلاميين عندما يقطع المرء وسائله عن الخلق إلى الخالق الحفيظ الرقيب ، وهو أعلى مراتب التوكل والاعتماد على الله ، فلا يقدح في الدين الجهر بالسوء من قبل المظلوم على ظالمه ، قال تعالى : ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ (النساء:١٤٨) .

والجهر بظلم الاستعمار وعدوانه المتكرر من الأمور المباحة ، قال الإمام الشوكاني : « إلاّ من أُكرِه على أن يجهر بسوء أو من كفر فهو مباح »[1]. وقد استند إلى ما رواه أبو شيب والترمذي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : « من دعا على من ظلمه فقد انتصر »[2].

ومن ثمّ ؛ فإن التجاء الإلوري إلى الله نوع من انتصار الإنسان المسلم على أعدائه ، ولا تنحصر منفعته على ذاته فقط ، بل تشمل المسلمين ، وتستمرّ هذه العظمة النفسية حين أعد نفسه إعداداً كاملاً قبل القيام بتوعية غيره ، وعانى الأحداث في مراحل علمه حين أعرض عن الإنكليزية في نيجيريا من جهة أبيه والفرنسية في بنين (الداهومي) من جهة أمه ، وأقبل على العربية إقبالاً عظيماً ليس توجيها من قبل السلطة العليا فقط ، بل كان ينسجم مع عقيدته حتى عندما ألمّ بالإنكليزية لم يعجب بها إعجاب غيره من العلماء الذين آثروها على أصالتهم العربية تحمسا وانتماء وانقطاعا إلى حوض الثقافة الأجنبية ، وجاء في معرض قصيدته :

لقد تعلمت علم الدين في لغة ... أنزلت فيها كتاب الذكر والمثل
صرفت فيها حياتي من بدايتها ... إلى أواسطها والنفس في شغل
لكن على غير جدوى في الحياة وقد ... ظلّت معيشتنا ضنكا على الفشل

لم يكن هذا يأسا من العربية ولا رغبة عنها ، بل إنّه اعتزاز وتمسّك شديد بها واستكراه للإنكليزية ، ونراه يقول في موطن آخر :

أستغفر الله وأحمده ، وأشكر آباءنا الذين منعونا من دخول المدارس الإنكليزية ، بل أجبرونا على تعلّم العربية مع كثرة مشكلاتها وعقباتها ، ولولا علمهم هذا لشغر المكان الذي شغلناه في المجتمع الإسلامي ، أنا والحمد لله

(1,2) الشوكاني ، فتح القدير ، ص: ٥٣١.

أعرف من الإنكليزية ما أقرأ بها الجرائد اليومية والمجلات ، وأستطيع أن آخذ وأردّ بها عند الضرورة ، ولكن كثيراً ما أمتنع أن أتحدث بها للتفاخر[1].

والعلم موهبة من الله لسائر عباده ، ولكن الوسائل التي يتخذها كل جنس لتنميتها قد تختلف قوة وضعفاً من بيئة إلى أخرى حسب الإمكانيات والمقدرات التي تمكنهم ، وبنور المعرفة يميز المرء الشر من الخير ، والقبح من الحسن ، والرداءة من الجودة ، والخبث من الطيّب ، وبه يدافع عن نفسه أمام عدوه ، والجهل أصل التربية الهدامة ، وجرثومة المبادئ العائقة ، ومصدر الخرافة السخيفة ، غير أن السياسة العلمية التي تمارسها الإنكليز ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وبلجيكا ، وبرتغال ، وكل ما على شاكلتها من الدول الاحتلالية تعارض المنهج الرباني الذي يدعو إلى توفير الحقوق الثقافية لكافة الأجناس البشرية بقطع النظر عن الطبقية ، لم يفعل المستعمرون هذا بل احتكروا العلم لأنفسهم وأعوانهم محصوراً في تراثهم ، وتفننوا في أساليب عداءة المسلمين من الاستبداد والقهر والبطش ، وأداة التفرق والعنصرية ، وأبشعهم التبشير المسيحي الذي تواطأ مع الاستعمار متعاونين على إشاعة البؤس والنقمة سعيا وراء تعطيل المدارس الإسلامية ، وتلويث مكاتبها ، وإخلاء مكتباتها ، وإضعاف القوة المعنوية من نفوس الطلاب والأساتذة محرضين غيرهم عليهم بكل ما تهوى النفوس ، ولكن الشاعر لم يكترث بهذه الكآبة فتصرفه عن عزمه وجدّه بل مضى في سبيله ، فتلقى علومه أولا في البلاد ، ثم وفد متثقفا على المشرق العربي ، وإن كان الاستعمار قد فرض رقابة شديدة على الوافدين حينئذ لم يظفر بهدفه إلا بعد اللتي واللتيا حتى عاد إلى نيجيريا صابراً على ما تمارسه قوة الاحتلال ضد الإسلام وتراثه متصديا للقوى الباغية ، وما أجله تضحيته ، انظر كيف يصور هذه الفكرة :

---

(1) الإلوري ، الصراع بين العربية والإنكليزية في نيجيريا ، دار التوفيق النموذجية للطباعة ، القاهرة ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م ، ص: ٢٢.

لكن على غير جدوى في الحياة وقـد ظلت معيشتنا ضنكا علـى الفشـل

كما لم تسمح الإنجليز بتزود ثقافتها على طريقة بريئة من التدليس والتنصير كذلك جمدت نشاط العربية وزهّدت الناس في تعلمها ، وأوصدت أبواب التوظيف عن روادها المخلصين ، وطلابها المجاهدين ، فأصبحت حقارة وعاراً وذلاً ألقاب «مالم» ، و«مَوْدِبّ» ، و«ألفا» ، و«ألفع» ، و«الشيخ» ، و«المقدَّم» ، و«المريد» ، و«المفسّر» ، و«المقرئ» لحكّام البلاد ، وكانوا قبلئذ يعتزون بها ، ويؤثرونها على نظائرها ، كالإمامة ، والخلافة ، والإمارة ، والمشيخة ، والعالمية .

وأسوأ من ذلك ؛ أن الإدارة الاحتلالية نحّتْ الحكّام عن ممارسة نشاطاتهم بين رعاياهم على مقتضى الشريعة الإسلامية الكاملة ، وسرى التعطيل إلى إقصائهم عن شرف وظائفهم الكبرى كإمامة الصلاة ، والتدريس ، والقضاء ، والفتوى ، والقيادة ، واقتصرت مهمّاتهم على جمع الضرائب ، والخراج ، وتنفيذ أوامر ونواهي السلطة الأجنبية ، وتعزيز مواقفها ، فأي بؤس أنكى من أن يقضي المرء جل حياته في العلم وتحصيله ، ويفتح عينيه ولا يرى إلا أن أبواب الراحة بعد التعب ، واليسر بعد العسر ، والغنى بعد الفقر قد أوصدها الرجل المستوطن الجبار بدافع السيطرة والقوة ، ولا يجد ما يسد بطنه إلا رمقا من العيش ، بينما كانت الوزارات ، والوكالات ، والمصانع ، والمحلات والغرف التجارية ، والمحاكم ، والمكاتب ، والدواوين الحكومية تستقبل من يتقن الإنكليزية إثر تخرجهم مباشرة .

والشاعر صادق فيما قاله ، والدليل على ذلك ؛ أن هذه المرارة التي يعبر عنها تجارب أليمة قد ذاقها معه معاصروه ، وصاح عليها أدباء الصحوة والاستقلال ، فجاء تعبيرهم صورة حيّة تعكس ما يعانيه الناس أجمعون ، ومن هؤلاء الأستاذ الدكتور سعيد غلادنث الذي يقول :

«تلك الحوادث كلها والتي أعقبت دخول المستعمرين ، زادت الجو كآبة

وظلاماً ، وهي في ذاتها كافية لإلهام العلماء ، والأدباء ، والشعراء»[1] ، وممّن صوّروا هذه الحالة المحزنة الوزير عبد القادر مشطو بن الوزير محمد البخاري الذي يقول :

عسى اللّيل حتى اصطاد ثور وثعلب ... وناوءت الآساد ضب وأرنب
تفرّ أفاعي الأرض من خوف ضفدع ... وتزرع هند في الصباح وزينب
وأبصرت أقواما مع الليل أنزلُوا ... أهليهم في الدشت والظبي تذهب
فولّت فرارا ثم فاءتْ وأقبلتْ ... فيا ليت شعري هل رأى الظبي أسرب
وأمّا ملوك الأرض فيما لديهم ... فما مسهم ضر وما خاب طالب
ولكنهم في نعمة أي نعمة ... بلادهم فيها أمان وزغرب[2]

والوزير مشطو[3] من أوائل الأبناء الذين عاشوا مع آبائهم في فاتح عهد الاستعمار الإنكليزي ، وشهدوا بطشته بالمواطنين ، والوعود الكاذبة التي خدع بها أسلافهم عندما أبرموا اتفاقية الأمن على أن يترك لهم حرية التدين وكفالاتها بمقابل منحه حق التجول في مناطق البلاد المختلفة ، لأن همته الكبرى تكمن في السياحة والنظر في أوضاع المنطقة ، وللاطلاع على أمجادها ومزاولة التجارة بين دولته والمواطنين ، ولكن أخيراً انقلب جاراً عنيداً يسوم الناس سوء العذاب والمهانة منفذا برامج العداء والبغضاء ، يولي من يشاء ويعزل من يشاء ، ودهى وأمرّ أن تطبيق الديمقراطية في شتى وجوهها وأشكالها وميادينها كان قائماً على العنصرية لتمييز جنس غريب على قريب لكون الأول صاحب السلطة والقيادة والزعامة ، وإذا جئر المواطن على الظلم سولت له نفسه أصنافا من معاول القمع وإراقة الدم ، فلا بأس إذا مال الشاعر

---

(1) دكتور سعيد غلادنث ، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا ، ص: ١٩٣.
(2) دكتور علي أبوبكر ، الثقافة العربية في نيجيريا ، المصدر السابق ، ص: ٢٦٨.
(3) وهو الذي أوفده أبوه الوزير محمد البخاري ، بنص المعاهدة إلى الشيخ سعد عالم غوند لاستفتائه فيما تم به من المعاقدة .

هنا إلى الأسلوب الرمزي ، لأن الصريح قد يعرضه إلى المهالك ، ولعل الوزير جنيد لا يقل هما وكآبة عن أخيه الوزير مشطو في تصوير هذه الظروف الأليمة عندما يقول :

صارت مراتع للوحوش بعد أن ... كانت مقاصد حاضر أو باد
أقوت فلست ترى بها أحداً سوى ... حرباء لائذة على الأعواد
أسفي على طلل يمازحني متى ... ناديت خالفني على المعتاد
لما سكتُّ دنت إليّ حمامة ... مغبرّة تبدو كلون رماد
فسألتها أين الذين عهدتهم ... قالت : لقد بلغوا على الميعاد[1]

تقع القصيدة في اثنين وعشرين بيتاً ، تحمل آيات النغمة الحزينة تنفيسا للكرب والآلام ، وربما يكون الوزير جنيد أكثر إفصاحا وتصريحا من سلفه ، وإن كان الموقف واحداً ، ولكن الأساليب التي يتخذها أحدهما قد تختلف قوة وبأسا نتيجة الظروف المحيطة ، والأقدار والحظوظ التي يمنحها الله ، وليس ذلك لجبن ، ولا خور ، ولا مسكنة ، ولا مذلة :

« فإذا استبدّ الغاشم بالرأي وعمد إلى القمع ، والزجّ في السجون ، وتخريب البلاد ، وتهريب العباد ، وفاته أن القسوة إن أدبت المتمرد ، وأرغمته على الهدوء ، أو إذا استعمل الجائر سياسة « فرِّقْ تسُدْ » ومال إليه من باعوا عاجلهم بآجلهم ؛ فإن الغاصب لن يفلح في تبكيت الراغبين حقا في الحرية والثائرين على الظلم »[2]

وإذا عنّفت بشدة اللهجة هذه القصيدة ؛ فإنها سمة أدب الصحوة والاستقلال يراها الشاعر أنسب الأساليب ، وينفذ بعض شعرائنا المعاصرين إلى التعاطف

---

(1) الوزير جنيد ، ديوان القصائد (قافية الدال) ، مخطوط بمكتبة الكاتب الخاصة.
(2) دكتور محمد عبد الرحمن بن شعيب ، الأدب المقارن ، نظرياته وأسسه ، ص: ٢٧٧ و٣٠٠.

العالمي إحساسا عميقا بقيمة الحرية ، ونشدان الحق والاستقلال ، وذلك فيما استجد على حربي الكون عام ١٩١٤م وعام ١٩٤٨م ، ولم تقتصر ويلاتها على الأرواح البشرية فقط ، بل عمّت الخلق والطبائع ، ونرى الشاعر إبراهيم ابن عمر يقول :

جار يعادي جاره وأخ ... يردي أخاه بقنبل ذري
وحجارة السجيل تحمي في ... فوق الهواء تسير كالطير
لا الليل يمنع إن أراد ولا ... حرم هجوم شقيقه البر
الحرب تتلو إثر ما ذهبت ... فتدمر الأمصار بالجمر
بالطائرات والبنادق أو ... دبّابة وبمدفع تجري
وبواخر تغوص إلى ... عمق البحار مثيرة الشر
وقد اعتدت وطغت وما حكمت ... حكم المروءة في بني البشر[1]

ومضى يزداد رقة نفسية تألما وتعاطفا مع «هروشيمَا» في أحزانها وهمومها ، وينطلق إلى آلام الدنيا بأسرها ، كيف دمرت الأسلحة الفتاكة مظاهر الكون من طبائع إنسانية ، وحيوانية ، وزراعية ، ومعدنية ، وكل ما تقوم عليه الحياة من نماء ورقي وحضارة ، بل أدهى أن أصبح التوجس والتربص شعيرة الناس ، وضاعت على أثرها عرى التآلف والتآخي في هوة سحيقة إلى أن قال يخاطب الأمم المتّحدة معرضا لها على تناقضاتها :

الأمن والسلم هو المطلو ... ب ننشد بنيك في الدهر
فإذا تعذر لا نريدك بل ... نرجو بديلك فاقبلن عذري

ونتيجة لذلك ؛ فإن الأدب الحزين اتجاه إنساني يتفق مع تطور الأحداث ، ويجد من العوامل ما يجعله صورة شاملة الإنسانية عامة ، فلولا أن الله قفّى

---

(1) دكتور علي أبوبكر ، الثقافة العربية في نيجيريا ، ص: ٥٩٢-٥٩٦.

على آثار الأسلاف الصالحين بأولي بقية يتمسكون بالإسلام وثقافته العربية لكان مجدنا جملة وتفصيلا أثراً بعد عين ، ورماداً بعد جمرة ، ومن ثمّ يعد العلامة من الأفذاذ الذين أبوا على أنفسهم إلا أن ينازلوا السلوك الاستعماري ، ووثقُوا بأن الله ناصرهم ، وهو الذي أمر عباده المؤمنين بأن يعدوا العدة لأعدائهم على نحو ما يملكون من سلاح وعتاد ، وضمن لهم الغلبة والعزة على تحديات الزمان وأذنابه ، وألا يستهينوا لقلة عددهم وعنادهم ، وعلى هذا ضحى الإلوري في كلتي الفترتين الأخذ والأداء ، وليست الأخيرة بأحسن من الأولى إذ لم يكن لحملة الثقافة العربية دور كبير إلا في منابر الجمع،والأعياد، ومجالس الوعظ ، والإرشاد ، وغيرها من المسئوليات التي لا تدر لهم أرزاقا في عهد الطغيان الأجنبي .

وأما التوظيف الحكومي من قضاء ، ووزارة ، وسفارة ، وتجنيد ؛ ومكاتبة ، وغيرها من الدوائر الرسمية ، فمحتكرة في الدولة الاستعمارية ومواليها إلا قليلا من الذين خلعت عليهم ثيابا بالية والحال شبيه بما قاله الندوي ـ رحمة الله عليه ـ :

« سرى الشك وسوء الظن في الأوساط الدينية ، والبيوت العريقة في الدين والعلم بتأثير المحيط ، وبتأثير التعاليم الأفرنجية ، وضعفت الثقة بالله ، وبصفاته ومواعيده ، فأصبح الآباء يضنون بأولادهم على الدين ، ولا يخاطرون بأوقاتهم وقواهم في سبيل الله وعلوم الدين ، وأصبحوا يعلمونهم العلوم المعائشية ، واللغات الأفرنجية ، ورغبة في تحصيل المفيد النافع ، ولا دفاعا عن الإسلام ، بل زهدا في الدين ، وفرارا من خطر المستقبل ، وخوفا على أفلاذ أكبادهم من الضياع ، واستسلاماً للدهر المتقلب ، وتسلط عليهم خوف الفقر حتى أصبحوا من خوف الموت في الموت »[1] .

---

(1) أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص: ٢٤٢.

إن حقا على العالم الإسلامي أن يمني نفسه بهذا المنصب الخطير ، ويطمح إليه ، وإن حقا على كل بلد إسلامي وشعب إسلامي أن يشد حيازيمه لذلك ، وإن حقا على كل مسلم أن يجاهد في سبيله ، ويبذل ما في وسعه فهذه هي المهمة التي نيطت بالأمة الإسلامية يوم برزت إلى عالم الوجود ، ويوم ظهرت قوته في جزيرة العرب[1].

إن العواطف الإسلامية نزعة إنسانية لا تعرف حدوداً جغرفية مصطنعة ، فإذا جئر المرحوم الندوي في أقصى بلاد آسيا لقي له تجاوبا كبيرا في مثيلها من بقاع أفريقيا على لسان نظيره الذي ورد قوله :

وانهار عيش بني الإسلام يا صمد ... كأنهم في ضلال الدين والخطل
أولاك شعب النصارى واليهود لقد ... نالوا حظوظ الدنا يا قسمة الأزل
أعطيتهم كل خير في الهواء وفي ... بر وبحر وفي سهل وفي جبل
فما لنا غير قرآن وحكمته ... ونقل كل حديث الخاتم الرسل
هل أجبروك على توفير حظهم ... ومنعنا حظّنا حتى من العمل

تلك القطعة تضاف إلى معاركه العادلة على المستوى العالمي حيث وقف مع تلامذته مساندين العرب في قضايا فلسطين ، ولا غرو أن يغمره ذلك الوعي ، وقد شهد حلقات الإمام حسن البنا ، وبلغ أن قاموا بمظاهرات صاخبة ضد رئيسة وزراء إسرائيل غولدمائير إبان زيارتها لنيجيريا ، وفرّقتهم عصابة الشرطة ، ثم جدّدوا مقاومتهم لها بعدة حملات التوعية للمسلمين ، وإيقاظهم لخطورة إسرائيل على الإسلام ومقدساته لاسيما في نكبة عام ١٩٦٧م ، ولما تمّ النصر المبين في حرب رمضان عام ١٩٧٣م ، أقام المركز تظاهرات وتباشير غبطة ومسرة ، يقول الكاتب في ميميته :

خطوط بارليف قد غدت حلم يائس ... دعائم كفر أوذنت كالهوادم

---

(1) أبو الحسن الندوي ، ماذ خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص : ٢٦٢.

فظلت جيوش البغي شر هزيمة فولوا على الأدبار قل السوائم
وسيناء تجري ذيل فخر على العدى فعادت إلينا نعمة بالولائم[1]

ولذا كان تعبيره شديد اللهجة يؤتي معنى مستبعداً للاستحالة على الله أن يجبره اليهود والنصارى على توفير حظهم وتحريم المسلمين حقوقهم ، وذلك لإزالة عقيدة أناس تخلبهم مظاهر الحياة ، ويظنون ظن الجاهلية أن مرح أولئك الفئة من أهل الكتاب ، وترفهم ما هو إلا لصفاء دينهم ، ونقاء عقيدتهم ، واختيار جنسهم على سائر الخلق ، وهي عقيدة تطابق هوية اليهود حين قالوا : « إنهم شعب الله المختار » ، وتعالى المولى عن ذلك علواً كبيراً .

والحقيقة ؛ أن اليهود ليس لهم استقرار تام في نيجيريا بشكل جم غفير قبل الاستقلال إلا شرذمة من تجارهم ، ولم يؤذن له فتح السفارة إلا في عهد قريب ، ولما قامت حرب رمضان بينهم وبين مصر عام ١٩٧٣م السابق ذكرها ، وأعلنت الدول الأفريقية مقاطعة إسرائيل ؛ كانت نيجيريا في صفوف الدول المساندة لحق العرب في فلسطين ، وظل الأمر حتى عهود بعض الرؤساء والحكام الذين مالوا إليها ، وعلى أثر ذلك جددت علاقتها بنيجيريا ، واستأنفت سفارتها للمرة الثانية ، فتدفقت سيول اليهود إلى البلاد ، وشر البلية أن يحمل جريمة ذلك بعض الأدعياء المرتزقين الأبرياء بدافع العصبية ، والله المستعان .

فلا تناقض إذًا بين هذه الفكرة وسابقتها ، لأن الخطاب موجه إلى الله ـ جلّ شأنه ـ ، على أن حسن بسط الكلام في مثل هذه الحالة أنسب من الإيجاز ، فلم يأخذ الشاعر خور واستسلام للاستعمار ، وإنما ظل يزداد شجاعة وبسالة ، ليدافع عن مواقف العلماء المخلصين الذين لم ينخدعوا ببريق الذهب والفضة ، ولا لتقلب الكفرة برا ، وجوا ، وسهلا ، وجبلاً .

---

(1) انظر: مجلة العروة الوثقى ، العدد الثاني عام ١٩٨٠م ، ص: ٢.

ومهما يكن ؛ فإن القطعة وما تؤديه من فكرة بناءة توحي بصرامة شديدة على تمسك الكتاب والسنة ، وهما العماد الجليل لسائر مناحي الكون والحياة لا يتزحزحان عند بناء القياس والاستدلال وبهما يبقى الاحتجاج ، وفيهما يصح الاجتهاد على ضوء الفهم وقوة الفقه .

وذلك موعظة بالغة للذين يخلبهم الملحدون في آيات الله ، ويصرفونها إلى ما يطابق أهواءهم كفرا وبغيا وفساداً نتيجة التطاول على حطام الحياة الدنيا ، وقد قعر الله آذانهم لعلهم ينتهون عن الإلحاد والعلمانية في قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ (الروم:٧) ، وقوله : « ولو بدا لهم في الظاهر أنهم علماء ؛ فإنهم يعرفون الكثير ، ذلك أن علمهم سطحي ، يتعلق بظواهر الحياة ، ولا يتعمقون سننها الثابتة ، وقوانينها الأصيلة ، ولا يدركون نواميسها الكبرى ، وارتباطاتها الوثيقة ، وما وراء الظاهر من روابط ، وسنن ، ونواميس شاملة الظاهر والباطن ، والغيب والشهادة ، والدنيا والآخرة ، والموت والحياة ، والماضي والحاضر ، والمستقبل ، وعالم الناس ، والعالم الأكبر الذي يشمل الأحياء ، وغير الأحياء ، وهذا الأفق البعيد الواسع الشامل الذي ينقل الإسلام البشرية إليه ، ويرفعها فيه إلى المكان الكريم اللائق بالإنسان الخليفة في الأرض المستخلف بحكم ما في كيانه من روح الله »[1] .

ومن المؤكّد ؛ فإن الإلوري لا يعادي طبائع الحياة التي لا تتعارض مع حقائق الدين ، فقد عني بها عناية كبيرة ، فجلّى منافعها ومضاراتها في محاضراته ، ومقالاته ، وكتبه ، ورسائله ما لم تدع تلك الضروب الفلسفية إلى كفر وإلحاد ، وكثيرا ما يردد في مثل هذا الموقف[2] قول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا

---

(1) سيد قطب ، في ظلال القرآن ٢٥٨/٢١.

(2) وأبرز مواطن ذلك بعد كتبه ندوتا جامعة إبادن ، بعنوان: الإسلام وقضايا الطب ، وحلقات المولد النبوي ، في موضوع الإسلام وصعود الإنسان على سطح القمر.

﴿ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (الرعد:١٧)، قاعدة مطردة لقياس الأمور وقضاياها المختلفة ، وقد شرع الله للمسلمين مناهجهم في الحياة ، وتأسيسا من ذلك ؛ فإن العلوم التي لا تحاول زحزحة الإيمان والاعتقاد عن قلوب المؤمنين يلزم اغتنامها واختزانها للمصالح والمنافع التي تعين على عبادة الله ، والثقة بدينه ، والعمل بشعائر أحكامه ، وهو العظيم جلت حكمته الذي أودعه في معجزات رسله .

وعلى هذا الضوء استمر الشاعر في تقرير هذه المبادئ السامية حتى ختم القصيدة بما بدأها من حسن المناجاة إلى الله انتصارا على ما جلبه الاستعمار وأعوانه على الإسلام وثقافته العربية متضرعا إلى الله جل شأنه لإصلاح أحواله ، وتيسير أموره ، وحقق له ذلك ونصره نصراً عظيماً ، فبنى معقلا حصينا تتحطم عليه أحلام الاستعمار وأعوانه من المواطنين ، فوجب الشكر والثناء على الله تعالى رب العالمين ، فهو يقول :

« إن المهمة الأولى في إنشاء هذا المركز ؛ إعداد رجال يحملون الوظائف الإسلامية ، كالإمامة ، والخطابة ، والوعظ ، والتدريس ، ونحوه ، وقد كلّل الله هذه المهمة بالنجاح حيث صار الخريجون من هذا المركز يملأون الأماكن الشاغرة في المدارس الحكومية والأهلية ، وفي المنظمات الإسلامية في المدن والقرى بنيجيريا وبنين (الداهومي) ، وفي غانا ، وساحل العاج ، وهناك عدد ممن واصلوا التعلم حتى أكملوا في الجامعات العربية والداخلية ، فأصبحوا أساتذة ودكاترة ومدرسين ، وانتظم الآخرون في سلك الوظائف الحكومية ، ولا تزال الطلبات تصل إلينا كل عام بمختلف الجمعيات ، والمنظمات لإمدادهم بالمدرسين والأئمة والوعاظ ، وذلك من فضل الله علينا وعلى الإسلام »[1].

---

(1) الإلوري ، التقرير الخامس ، ص٢٥.

والظاهر ؛ أن هذا ليس مدعاة الزهو والعجب ، فإنه منطق الواقع والحقيقة حمدا لله على نعمه حين نفع به الإسلام ، وجعل له تلامذة وأتباعا يقومون بأدوار مماثلة في مناطق مختلفة ، وليجعلوا ذلك أثارة علم للأجيال القادمين ، ويواصلوا معا هذه المسيرة الخالدة ، فيحرزوا انتصارات تلو أخرى حتى يعيد المسلمون مكانتهم من الصدارة والقيادة ، وتتم لهم العزة القصوى والغاية العظمى ، وهي تحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تحقيقا لقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ (النور:٥٥).

وأما القيمة الفنية ؛ فقد آن لنا أن نبين أمرها ، لأننا بصدد التبشير بالأدب الإسلامي على سداده الحكيم ، إذ يقرر التكامل الدقيق بين الشكل والمضمون وزنا كبيرا في بناء العمل الأدبي ، ونتيجة ذلك ؛ فإن القصيدة تتسم بجمال الأسلوب كما تتسم بجودة الفكرة ، حين اختار صاحبها ألفاظا سهلة مناسبة ، تتجلى معانيها وأغراضها غيثا في القلب ، ولم لا يكون؟ فقد تلقى الشاعر علومه على سادات لا يعجبهم التكلف في ضروب الحياة ، وكانوا يكرهون التشديق والتقعير ، غير أن الرصانة في التراكيب تأسرهم لدربتهم الطويلة على القواميس الأدبية وطول تذوقهم لأنماط الأساليب الراقية ، وليس من الصحة بمكان أن نحكم الحدس والتخمين وبين يدينا اليقين في النص فليكن إذا منطلقنا واقع الألفاظ ووجوهها وملامحها ، ومن ذلك ما جاء في مطلع القصيدة الذي جاء من قوله :

يا رب قد ضقت ذرعا بالهموم وقد ... رجوت فضلك يا رحمان لم أزل

فهل وجدت في النص لفظة كريهة تعقد معناها من جراء الغرابة وسوء التأليف والتركيب؟ وأدت إلى استكراهها سمعا وتذوقا؟ فإذا لم يكن ذلك ؛ فإن موطن الجودة أن الشاعر نظر إلى وجوه اختيار الألفاظ ، وفطن إلى دقة

البناء فتماسكت الأجزاء ، وترابطت ترابطا يستحيل استبدال بعض من بعض ، ومن ذلك حسن موقع كلمة «ضاق ذرعاً» للتعبير عن الألم الممض الذي أحاط به إحاطة شاملة والعبارة «كناية عن ضد السعة ، يقال : الضيق أيضا : يستعمل على الفقر ، والبخل والغم»[1] .

ويؤثر الجمع في «الهموم» دلالة على الكثرة والتنوع ، ويختار «رجوت» وإيقاعه على «فضلك» مفعولا على سبيل المجاز لاستيفاء الكلام غرض الشمول والإحاطة ، وفي إضافة «الفضل» إلى ضمير الخطاب مبالغة للمقدرة والملكية التي لا يصل إليهما فقر ولا ضيق ، ويؤتي خلاصة هذا المعنى دقة القافية لمحافظتها على روح الإيجاز المطابق ، ومن الخاصية الجيدة ما ألهمه الذوق البلاغي من دقة الطرافة في كلمتي «ذو» و «صاحب» في «ذو الأمل وصاحب الزلل » أضاف الأولى إلى ما يؤدي معناها من شرف وقدر ، وأسند الأخيرة إلى ما في معناها من حقارة وذل .

وهكذا يعمل الشاعر إبداعه وفنه حتى تستقرئ القصيدة فتتجلى لك وجوه الجودة والجمال ، وإذا كانت من المستحيل توفية البيان تحليلا شاملا لخصائص ألفاظ النص فمن الإنصاف أن نقف عند مزايا جليلة القدر في التراكيب إذ تعد القصيدة من أجمل ما صنعه الشاعر لما فيها من إحكام البناء ، ودقة النسج ، وقوة الترابط ، وإفراز ما يوقظ الشعور ، ويبعث العاطفة ، ومن ذلك كثرة الصيغ الإنشائية التي تغمرك روعتها من براعة ، ويقول :

يا رب قد ضقت ذرعا بالهموم وقد رجوت فضلك يا رحمان لم أزل

فقد نادى مولاه بالربوبية «يا رب» فجعل الجملة في موقع السؤال ، ثم أولاها «قد ضقت ذرعاً» جواباً ، فأوقع «وقد رجوت فضلك» حالية لتأكيد ما لسابقتها من مغزى جليل ، وكرر النداء «يا رحمن» وآثر مادة الرحمة في

---

(1) ابن منظور ، لسان العرب. مادة (الضاد).

الطلب والرخاء ، لأن من تقررت ربوبيته ثبتت رحمته ، وعظم دعاؤه في النفوس للاستدامة على حاله ، ولا يقل ما يليه من فنية جيدة لأداء المعنى والغرض حين علق هذا المطلع بما يليه تمهيداً ، ورتب عليه جملا أخرى بعضها بحجز بعض ليأخذ في قوله :

أرجوك والحال لا تخفى عليك على ما كان بي من حياة البؤس والعطل

ثم آثر العطف بـ« لكن» في البيت الخامس و« الواو » في السادس و« فاء الفصيحة» في التاسع ليدل على قدرة الشاعر ومعرفته بالتوزيع الدقيق لعناصر النص على سنن لا تخل بتلاحمها ، وهناك مغزى آخر في إحكام النسج والبناء يتجلى عند حصر النص في وحدتين ، فالأولى نزلها منزلة الأسباب والمقدمات فكثرت فيها جمل خبرية ، وهي قديرة على سرد الحقائق وبسط الحجج وإقامة البراهين ، واختار لها أفعالا ماضية على صورة تربو على نظائرها في النص ، لأن الأحوال التي يعانيها الشاعر يتمنى على باب التفاؤل أن تنتهي آجالها ولا تعود ، وتنقطع أزماتها فلا تؤوب ، وفي كثرة المؤكدات ما يدل على أن الارتياب والشك قد انتفى من خبره ، ونتيجة ذلك فإن قصد الشاعر خلق جو سليم لبناء المؤاخاة بين أبيات القصيدة حتى يبرز جميعها وحدة متلاحمة كأنها أفرغت إفراغا أو سبكت سبكاً ، ثم افتتح الوحدة الأخيرة بالإنشائية بقوله :

هل أجبروك على توفير حظهم ومنعنا حظنا حتى من العمل

لأن حاجته لما تتحقق ، ومطالبه ما زالت قائمة ، فأحرى به اختيار الأسلوب الذي يعينه على إفصاح قصده ، ويعمد إلى التأكيد والتقوية بإسناده إلى عديد من الجمل الحالية لموافاة البيان عما كان عليه من شئون وأحوال .

وعلى هذه الأريحية العظيمة من التراكيب نلقى صورا بيانية ذات قوة وجودة، ومن ذلك التعبير بالتشبيه في قوله : « ظلت معيشتنا ضنكا على الفشل» دلالة على التعميم بأن جميع معاصريه لم يبق منهم من لم يذق هذه المرارة

والنكسة ، وذلك بأن المتقدمين النابهين إذا ما أخملوا فما بال من دونهم من الأخلاف ، وعلى هذه الجهة من التشبيه القوي نرى صورة « كأنهم في ضلال الدين والخطل» ولم يكن الأمر كذلك إلا أن سوء الحال حمله على تخيلهم في تلك الصورة ، فأولى بهم أن يغيروا الوضع ، ويلافوا النقص ، ويقوّموا الأود .

ومن اللطائف البيانية جودة الاستعارة في قوله «انهار مجد بني الإسلام» ألهمه الإبداع الفني أن المعقول دخل في الجنس المحسوس لمّا هاله الأمر ، ولم ير أدلّ تعبير على شدة الألم والتأسي في المجد المضيع إلا في البنيان التي تهدمت أركانها ، وتهاونت مآثرها بعد أن كانت في أيامها الأولى مطمح الأنظار قبل أن تساقطت تساقطا لا يرجى لها إصلاح ولا ترميم ، وترتفع قيمة هذه الاستعارة بمهارة الشاعر عندما لاحمها الاقتباس من قوله تعالى : ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ (التوبة:١٠٩) لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل قيل فانهار في نار جهنّم على معنى فطاح به الباطل في نار جهنم إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف ، وليصور أن الباطل كأنه أسس بنيـ ، على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهو في قعرها ، ولا ترى أبلغ من ذلك الكلام ، ولا أدل على حقيقة الباطل وكنه أمره[1].

ومن بديع القول والصناعة حسن وقوع كنى كثيرة تصويرا رائعا ، لإلطاف الكلام لمحة واختصارا ، فيوقع مجملا ما يعرف لفظه مفصلا لنباهة الكلام على وعي المخاطب ، ومن ذلك : «بني الإسلام» في قوله :

وانهار مجد «بني الإسلام» يا صمد كأنهم في ضلال الدين والخطل

عندما ادّعى أن اليهود والنصارى قد استولوا على مراكز الحياة على حين كان المسلمون هم أحق بها منهم لأنهم أمة وسط أنار لهم المولى الجليل مدبّر الكون كيف يتم لهم اغتنام سعادة الدارين ، كان هذا أدعى إلى بناء دليل قوي

---

(1) الزمخشري ، الكشاف ٢/٢١٥.

لتبرير موقفه فجعل الكناية أقوى حجة على أن المسلمين ما داموا أعرق في الحنفية فهم أولى بنيل الحياتين ونعمهما إذ يجمعون بين امتثال الأوامر واجتناب النواهي جملة وتفصيلاً ، وكذلك تحدوه الصياغة الفنية إلى وضع ما يعرف في ظاهر لفظه بعيد المرام ، عالي المكانة ، نادر الوجه لتكثير المعاني والأغراض عندما يكني نفسه بذي النجوى وذي الأمل لتقرير معناه وتوكيده ، لأن العبد إذا حظي بمناجاة ربه وعرض عليه قضايه فذلك تشريف له وتكريم ، وليس كل من أهمه الأمر واعتراه اهتدى إلى التضرع إلى الله ومناجاته ، وهذا ما يجعل المسلم يعتز بنعمتين ؛ نعمة المناجاة والإنابة ، ونعمة الرجاء والرغبة فيمن لا يخيب من رجاه . وفي التعبير بصاحب الزلل» إما لاعتراف الذنب والخطيئة للدلالة على أن ما حل به نتيجة ما اقترفه من الآثام تأدبا مع الله ، فإنه تقدست ذاته عن صدور السوء منه ، وإنما جاء العقاب علة الذنوب والخطايا من العبد ، وإما لخشية التطاول على الله والبعد عن المبالغة الرخيصة ، وعدم السلوك بالطلب ، والإلحاح في سبيل ما لا يرضاه الله تعالى ، والإنسان قد يدفعه الإفراط والإسراف إلى الوقوع فيما حرم عليه على سبيل الخوف المنيب .

وإلى ذلك من اهتمام الشاعر البالغ بترصيد الوجوه البلاغية ، وتجميع القوى البيانية لتعانق فنونها وتتلاحم جمالياتها تأتي جودة الاقتران بين « مراعاة النظير » و« تشابه الأطراف» ، والإرصاد في عديد من أبيات القصيدة حتى تتحقق الغاية ، ويتركز المعنى في القلب والنفس والعقل على بؤرة القوى الشعورية ، ومن هذه الأريحية العظيمة ما جاء في قوله :

يسِّرْ له العيش والأرزاق مسرعة يا خالق الخلق أدرك صاحب الزلل

براعة اختتام من حيث بناؤه على الأسلوب الإنشائي على لغة الاستغاثة ، والسرعة لنيل مطالبه ، فحسن الكلام حين قدم الفعل الطلبي « الأمر » والجار والمجرور على المفعول ، ومال إلى الالتفات ، وجعله جملة حالية متمة لصدر

البيت ، ثم بنى النداء وجعله واسطة العقدين صيغتي الأمر لتقويتهما وتحريكهما على أسلوب فحول البلاغيين من الشعراء المقتدرين ، لأن العادة الشائعة أن يتقدم النداء الأمر والنهي لتهيئتهما ، وفي تأخره يدل على وفاء الغرض للمرتين ، وتأكيد القصد لمبالغة التعبير عن التبتل والتذلل والانقطاع إلى الله وحده ـ جل ثناؤه ـ ، ومن هذا الأسلوب ما جاء من الفرزدق حيث يقول :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

أما الموسيقى ؛ فإن الشاعر قد اعتنى بالسنن العربية في تنغيم الإيقاع الصوتي لأداء المعنى ، فاختار بحر البسيط لمناسبته عرض القضايا وإفصاح البيان لتحقيق الأمل ، وهو يطابق مواطن القوة والوكدة حينا ويحسن الرقة والرشاقة واللطافة حينا آخر ، وينفّس كرب القلب ، ويحرّك الفؤاد ما دام الأمل الذي يدفع صاحبه قويا ، ولم تتخل القافية عن سماتها الفنية إذ كانت لامية ، وهي تثير روح المعنى ، وتثري العاطفة ، وتزداد هذه الخصائص قوة عندما تتلاحم معها أشكال خارجية من جودة التكرار ، والطباق ، والسجع ، والمقابلة التي تؤازرها الموسيقى مؤازرة قوية لأداء المعنى ، وخلق الجو الملائم .

الغاية والهدف :

إن هذا المنهج لا يعترض الأديب إذا أشاد بمناقب حميدة ، من أي فرد من أفراد الأمة صنع عجيبا تقوم عليه قواعد الحياة المثالية من كرم ، ونجدة ، وأمن ، ورخاء لإيقاظ همم الآخرين حتى تنبعث فيهم روح المنافسة الإنسانية ، وكلما قام النص يحمل رسالة سامية ، وغاية نبيلة ؛ تتجلى صفحة مشرقة في الميزان الإسلامي ، ومعياره القويم ، وقد اهتم الإلوري على سنة الأدباء البارعين بارتفاع الأدب عن حضيض الأصل تعبيرا غير محصور في مناسبة قصيرة الأجل ، بل ينطلق إلى أبعد مسافة أملا ، أو ألما ، فيصبح أنشودة الناس ، تحل مشكلاتهم ومعاناتهم بصرف النظر عن حدود زمانية ومكانية ، لأن البشرية على الرغم

مما قد يكون بين أفرادها من تباين ؛ فإن العواطف تتشابه ، فتجعلها تتلاقى على نص واحد ، يغدو ضالتها التي يتعاقب على رواياتها الأجيال كابراً عن كابر[1].

وعلى هذا الأساس جاءت بائيته في مدح الأمير الراحل المغفور له ذي القرنين بن محمد بن الأمير شعيب بن الأمير بدر الزمان عبد السلام ابن الإمام العالم صالح بن جنت الفوتي ، إذ جعل غرضه جسراً أمينا إلى قصده الأصيل ، وهو دعوة نبيلة إلى إعادة العزة الإسلامية المجيدة التي بناها جد الأمير الأعلى الإمام صالح بن أحمد بن جنت الجلّوي في منطقة إلورن وما حولها في أدنى شمال البلاد ، حيث تلاقت بما قام به سلفه الإمام عثمان بن محمد فودي الطوري في أقصى هذه البقاع قبل احتلال الاستعمار الإنكليزي الذي مزّق هذه القوة المجيدة شر تمزيق ، وليس من شك أن فكرة الخلافة الإسلامية هي المحور العام الذي تدور عليه آراء العلامة الإلوري واتجاهاته ومواقفه ، وفنونه المختلفة على نحو ما تردد كثيراً ، وهو ذاته الجو العام للقصيدة بيانا لهذه العظمة الإسلامية وبراعة لبناتها ، ونداء كريما إلى إعادتها على صورة مثلى ، ويقول :

أمولاي ذا القرنين يا ابن محمد ... أمير إلورن طبت أصلا ومنصبا
ورثت لواء الدين من عالم الهدى ... مجدّد دين الله في أرض يعربا
وأجدادك الأولى الذين تقدّموا ... بنشر كلام الله شرقا ومغربا
تولّيت عرش الدين والعلم والتقى ... وصرت أميراً لشئون مرتّبا
وأخمدت نيران الذين تمرّدُوا ... إلى أن شروا للأكل بالنور غيهبا

---

(1) عقد الإمام النووي في شرح صحيح مسلم ، بابا سمّاه (مدح المرء في وجهه) ، وذكر عدة مناقب أتت من الرسول ﷺ لفئة من الصحابة رضوان الله عليهم ، وأنها مباحة للتابعين ، لأن ذلك من باب تأكيد الكلام وتعليمه ليعظم وقعه في النفس ١٠٩/١.

وأحييت آثار الصلاح الـتي عفـت وصيرت درب العلم للناس مـذهبا[1]

تغدو القطعة دليلا واضحا على صحة موقف الشاعر للإشادة القوية بعظمة وراثة الأمير ذي القرنين راية الإسلام من الشيخ صالح العالم بن أحمد بن جنت ـ رحمة الله عليه ـ جد الأمراء ، وشيخ العلماء ، وإمام الفقهاء .

والمعلوم ؛ أنه نسبة صحيحة إن لم يكن جدهم الأعلى عاقداً الراية فقد تلقاها الأدنى بكره الأمير الأول عبد السّلام ، وحيث إن السابق هو مصدر اللاحق في بناء هذه النهضة ؛ سلمت النسبة ، لأن الرجوع إلى الأصل أصل ، وعندما يصف ذلك الشيخ الجليل « بمجدد دين الله في أرض يعربا » فهو تعبير مركز يلقى مكانه من التفصيل في كتب القوم وأسانيدهم ورواياتهم لا سيما بطون كتب العلامة ومقالاته ، ومحاضراته ، وأنديته للفت الناس إلى أن هذه النصرة العزيزة التي بناها ابن العالم قد استقرت دولة إسلامية ، متضحة معالمها ، فقد وضعت لها حدودا جغرافية منتظمة في أكبر مملكة من بقايا أمثالها في غرب إفريقيا بل من أعزّها ، إذ لم تقم في منطقتها فقط بل استولى على نواح أخرى ، ولا تزال تعتزّ في تاريخها وأنشودتها بيوربا ، ولكن قوة الإسلام قد أظلّتها بجهود بني جنت ، وأنشئوا قوما توحّدهم مشاعر مشتركة ، يحكم بينهم كتاب الله ، وسنة رسوله الكريم ، وينفذ عليهم الأحكام والشرائع إمامهم ، يتعاون معه علماء وفقهاء أولو الرأي والسداد ، إلا أن وصف البلدة بـ« أرض يعربا » لمراعاة حدود متاخمة بجزء كبير لأويو عاصمة مملكة يوربا الكبرى فقط ، وأنها في أول أمرها امتداد من بقايا سلاطين برغو من برابرة الغرب منحها « أتبا » أحد ملوك أويو لتكوين قوته بها ، ولكنها قد أضحت منطقية شمالية على أثر التحديد السياسي ، وأن شعبها متكون من قبائل مختلفة منهم برابرة أسبق الناس إلى المنطقة ، وذوو عراقة بالحنيفية إذ كانوا متمسكين بالسنة شديد التمسك ، وفُتِحت على أيديهم المدارس على اختلاف

---

(1) الإلوري ، ديوانه: لقطات ، ص: ١٥.

أصنافها ، والمساجد والزوايا ، قد تعددت فروعها تعدد أجناسهم ، منهم بيض ينتمي بعضهم إلى الشرق ، ومنهم من قدموا من السودان ، ومنهم من وافوا من أقدس وهم التوارق ، ومن أعرقهم الجدّ الأعلى بنو التوري ، وينسب الآخرون إلى برابرة سنغى نزحوا في أول أمرهم بدند ، ثم واصلوا إلى ربوة السنة ، وعلى إجمال أمرهم فقد عرفت لهم شهرة مستفيضة تثبت لهم ما رسخ في موروثاتهم ، وهوسا حفدة مالم «بَاكَوْ» الذي يأوي إليه المهاجرون الهوسويون ، وهم من أعظم الناس ولعا بالحضارة والثقافة . ومن بينهم فلانة من ذرية (أوْلَوفَادي) الذي يرعى المواشي والأنعام ، وإليه ينزل أمثالهم من بني جلدتهم ، وقد آوى إليه الشيخ عند قدومه ، وعلى يديهم تم بناء الإمارة الإسلامية ، فانطلقت إليهم بعدئذ روعة الملك وأبهة المجد أسوة بما حدث في أقصى الشمال ، وقبيلة نوفي جيرة يوربا المنتشرين في أحواض نهر نيجر ووديانها وسيلانها لاستغلال منافع المياه بحرا ونهراً ونبعاً ، ويواصلون سيرهم بسراهم في خوض المعارك والحروب لتشييد الملك والمجد ، ثم يوربا وهم خليط من ذرية «أوْجَوْ إِسَيْكُوسَي» و بني«أَفَنْجَا» ، الذين عرفُوا بدقة تنظيم الحكم وعدالة السياسة ، وتصنيع الثقافة ، وبناء أسس الحضارة ، ثم عامة المسلمين من قبائل عديدة زحفوا من مناطق نائية ، كأقدس ، ومالي ، وغانة ، وبرنو ، بعد أن تمركزت في إلورن العزة الإسلامية ، ولا يقدح تعدد جنسياتهم وأعراقهم في وحدتهم إذ كان الإسلام هو الباعث الأول في تكوينهم .

على أن هذه الإشارة الدقيقة إلى مكانة الشيخ صالح لا تنقص من قدر سلفه ابن فودي ، إذ أن كليهما بشّرا الأمة بأن الراية الإسلامية ستمضي قدما لتكتسح البلاد كلها حتى المحيط الأطلسي ، ومن هنا نقدر للشيخ آدم اهتمامه بترميم ما اندرس من الآثار المجيدة ، وذلك قطعا سيحث همم الباحثين والكتاب ليزيلوا النقاب عن أمجاد بقية المناطق الإسلامية ذات ألوية الجهاد ، لأن كثيراً منهم لا يزالون يستغنون بذكر أعلامهم عمن سواهم أمثال الشيخ عثمان ،

والعلامة عبدالله ، والسلطان محمد بلو ، والأمير محمد البخاري ، والشيخ عبد القادر وأبيه مصطفى ، والوزير غطاط ناسين ما استجدّ بينهم من صنع عظيم في مناطق أخرى ككنُو ، وزكْزَك ، وكشْنَة ، وأدَمَاوَا ، ودَوْرَا ، وكبّ ، غوبر ، وبِدّة ، على حين كانت هذه البيئات قد خضعت لعوامل تاريخية ، واجتماعية ، وسياسية بحكم الشعب والجوار ، فخلقت لها أنماطا مميزة إضافة إلى ما تحكم فيها من الأحداث العامة التي قام بها الجهاد على يدي أعلامه المخلصين . وما يقوله في نعت أجداد الأمير في نشر كلام الله بين عباده المؤمنين حيث ورد منه :

وأجدادك الأولى الذين تقدموا بنشر كلام الله شرقا ومغربا

تلك العزة الجليلة التي أقامتها الإمارة في بناء عباقرة عظماء ، ونماذج حية خالدة في ضروب الحياة العلمية ، والفكرية ، والأدبية ، والسياسية ما ارتفعت به هامة المدينة عزة ومجداً ، فتكاتف العلماء المخلصون الذين أعدّوا قوتهم العقلية لأداء أمانة الله ، وأصبحوا ترجمان كلامه ، وحديث الرسول ـ ﷺ ـ مع الأمراء الذين أظلّهم المولى لعباده متفيئين نعمة ورحمة بدءا بذي الراية[1] الأمير الأول عبد السلام جدّهم الأعلى ، ثم عبد السلام أبي جدهم الأدنى شعيب إلى عمه الأمير عبد القادر بن الأمير شعيب ، وعندما يمدحه بتولي عرش الدين ، والعلم ، والتقى ، وتقلد الإمارة الإسلامية ، وارتقاء الرتبة العالية في قوله :

ترقيت عرش الدين والعلم والتقى وصرت أميراً للشئون مرتّبا

وذلك نصيحة مقدسة لأمراء المدينة وعلمائها وعلية قومها من حفدة الشيخ عالم وأتباعه للعودة الصحيحة إلى هدى السابقين ، فيصلحون ما أود من أمورهم ، وإلا فإن النزعات الغربية في جميع مناكب الحياة قد انخرطت في

---

(1) بايع عبد السلام الأمير خليل بن عبد الله عقب وفاة سلفه محمد بن عبد الله ، فأصبحت إلورن ضمن المنطقة الغربية ولعلها أقواها.

نفوسهم ، وحسبوها الملجأ الوحيد لإسعادهم ، وتناسوا ما كان عليه أجدادهم وآباؤهم من أدوار جليلة حين أقاموا دولة قوية نادت بضرورة الجمع بين العلم والدين ، وبين الدنيا والآخرة ، وبدلا من أن يتبع ذراريهم اليوم هذا النهج المستقيم لم يفعلوا بل اختاروا سبل المستعمرين سادتهم يرفعون شعار العلمانية ، ولا سلطان للدين في ضمائرهم وموازينهم ، ولا يعلمون أن صلاح أمور الأخلاف لا يتم إلا بما صلح به أسلافهم ، ومن أروع قوله :

وأخمدت نيران الذين تمرّدُوا إلى أن شروا للأكل بالنور غيهبا

وأحييت آثار الصلاح التي عفت وصيرت درب العلم للناس مذهبا

ذلكما البيتان اللذان عقدهما لبيان حلقات أخرى قام بها العلماء والأمراء انتصارا للسنة الغرّاء ، ومحاربة البدعة السوداء ، وقد تعاقب على العمل فيها أجيال من الأخلاف ، فوضعوا جميعا البناء على أساس متين من اللبنات القوية ، وذلك إشارة دقيقة إلى المرحلة الهامة من تاريخ قاطرة الخلافة الإسلامية وحوافلها في المدن الكثيرة حيث يرفع الناس بأمانة بالغة لواء « إحياء السُّنّة وإخماد البدعة » خلفاء وأمراء وجنوداً وعلماء وذكورا وإناثا وشيوخا وشبّاناً[1]، ولم تزل كلمة باقية في أفواه العلماء ، والمتعلمين ، والدعاة والذاكرين على السواء ، وكذلك يؤتي البيتان مغزى جليلا يكمن في التهنئة الجميلة بدور الأمير الكبير حين أحبط شر إحباط ثورة المرتدين[2] الذي يشيعون قلاقل لتغيير صبغة إلورن الإسلامية إلى الوثنية ، يغيظهم أن يروا آثار الجهاد باقية ، وأن يطيح الحق بالباطل ، وأن تقوم دولة العدل والحق والخير في بقعة أرادها الله مثابة للناس وأمنا ، وقد اتخذها المخلصون من عباد الله القادمين من شمال

---

(1) انطلقت الفكرة من النجيب التكدوي الأقدسي ، والبكري البرنوي ، وطن مسني الكشنوي ، وجبريل المرتي ، قبل أن تقع ملموسة لدى الجهاديين.

(2) وهم أتباع أوَوْلوْوَوْ كسليمان ميتو ، ودبنيا ، ولاوّوين ، وبابابكتا ، ومن على شاكلتهم ممن انحرطوا في حزبه لقلب إلورن في المناطق الغربية.

البلاد وغربها مهاجرهم ، وسقط في أيدي هؤلاء المشاغبين حين لم يقيموا دليلا وما أتوا به بديلا سوى دعوى العصبية البغيضة ، وأبى الله إلا أن تظل المدينة على قلادتها إمارة إسلامية نبوة ورحمة باقيتين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . ولا ينتهي الأمر ؛ فإن النص كذلك يثير عظمة أخرى متجلية في تقلد الأمير ذي القرنين نجمة تاريخية بأن نادى فتنادى إليه البرابرة والغوابرة والهواسية والفلانية واليرابية تنادي أجدادهم إلى إمامهم جدهم الأعلى ، فوضعوا لبنة « دار العلوم »[1] على أساس روح هذه المدينة الإسلامية التي تهجر العصبية ، وعادت النجوم الآفلة براقة في ضواحي أغَاكَا ، ويلوعن فلان وأسُنْ نَرَا ، وإتَاكوري ، وإسَالَيكَوْتَو ، وبابَوْكُو ، وتَكَمَا ، وابنُ يَنْمَا ، وغنْبر ، وأوجابورو ، وألإبدُن ، وأوْكَيْ لَيْلَيْ ، وأَوْجُ أَيْكُنْ ، وأكَلَنْب ، وأومَدَا ، وبَابَاتَا ، وإيتاأَبَيْ ، وبكة ، وأغودي ، وعظمت المدرسة في نفس الشاعر ، لأنها تقوم متصدية لخصومه الذين يهجونه بأنه خرّب مدينة إلورن لحساب أغيغي ، وأذلّ قومه للآخرين ، فارتاح ضميره بأن يكون نوابغ دار العلوم ردوده المقنعة أنداده ، وثمت مغزى آخر في اعتزازه بهذه القلعة العلمية إذ يعتقد بأن رعايتها تؤرخ له انطلاقة استلام راية الشيخ صالح الذي آلى على نفسه ومن قبله ابن فودي أن تنصب عالية خفاقة في قلب المحيط الأطلسي ، ويناسب ذلك عام ١٩٦٢م مرور العقد الأول من تأسيس المركز .

والحق أنه قد تلقى هذه اليقظة الفكرية من واقع بلاده ، ثم تأثر بالصحوة الإسلامية الكبرى التي يقودها الإخوان المسلمون حين لقي رائدهم وإمامهم حسن البنا ـ رحمة الله عليه ـ في مصر عام ١٩٤٩م ، ولم تنقطع بينه وبين أعلام الإخوان أواصر الثقة والمودة ، وأبرزهم كامل شريف السفير الأردني

---

(1) وهي مدرسة جليلة نبغت منها ثلة عظيمة من الكواكب الثاقبة لا يزالون يتخذون مراكز هامة في الحقول الإسلامية والعلمية والأدبية والبيانية من تبيين وتعليم ، وتدريس ، وقضاء ، ووعظ ، وسياسة ، وصحة ، وتجارة ، وصناعة ، ولله المنة أن كان الكاتب من فوجها الأول عام ١٩٦٦م.

السابق ذكره ، وسعيد رمضان ، ومحمد بهجة ، وتعاون مع كثير من قادة التضامن الإسلامي تحت مظلة رابطة العالم الإسلامي ، أمثال أمناء الرابطة وفي مقدمتهم الشيخ سرور الصبان ، وعلي الحركان ، والدكتور عبد الله عمر نصيف ، وأعضائها الكبار كالشيخ عبد العزيز باز ، والشيخ أبي الحسن علي الندوي ، وأيّد في ذلك كثيرا مواقف الزعيم أحمد سردونا باعتباره حفيد المجدد الإمام عثمان بن فودي الذي لا يزال في حياته يأمل في عودة هذا المجد الضائع ، ويعمل في سبيل تحقيقه حتى لبى نداء ربّه عام ١٩٩٢م .

وخالص الذكر ؛ أن تلك العقيدة راسخة في ذاكرة الإلوري تتجلى في ثنايا النص ليست للتزلف إلى جاه أو رئاسة أو قيادة إلا لمناصرة الإسلام ونشر ثقافته العربية حتى تعود أمجاد هذه الأمة كما كانت أيامها الأولى ، وكل ما سوى ذلك ليس من منهجه ، ولا مبلغ علمه .

أما فنية النص ؛ فنرى أن الشاعر قد اختار أسلوبا معتدلا فليس جزلا فخما ، ولا سهلا مهلهلا ، لأن الغرض هنا عرض قضايا هامة تغدو مناط التوعية والإيقاظ ، وليس قصده جمع النوال والمنح وغير ذلك مما يجعل المادح يتخير فضفاضة القول وأهبة البيان ، ومن ذلك قوله :

أمولاي ذا القرنين يا ابن محمد أمير إلورن طبت أصلا ومنصبا

فقد ناداه بكنى متنوعة تتسم بمعاني الاعتدال والتوسط بين القوة والبساطة ، بأن وصفه بالمولى تعظيما له ، لا تقديسا فصرح باسمه تهذيبا له ، ثم كناه بابن محمد تهذيبا وتوجيها ، ثم لقّبه بالأمير تأكيدا للمعنى الذي يجليه ، وهذا التنوع في الأوصاف والنعوت ، لم يكن عبثا لدى الإلوري فهو يهاب سلطان الله الذي نصب مخاطبه أميرا على المدينة لكنه لا يراه إلا عبداً من عباد الله تعالى ، وعندما ينعته :

ترقيت عرش الدين والعلم والتقى وصرت أميراً للشئون مرتبا

لم يخرج عن روح هذا الاعتدال ، فإذا كان الأمير لم يصل إلى هذا المقام الجليل إلا بجهد جاهد وعزيمة قوية ؛ فإنه قد تم باختيار ومشيئة من الله ،

وتروقك هذه الوسطية البيانية في دقة الجمع بين هذه الأوصاف ، ومراعاة الترتيب بينها ، فالدين غريزة أصلية ينتزع إليها الإنسان بدافع نفسي وشعور طبيعي ، وهو يتقدم كل غرائز وميول ، ويتبعه العلم لأنه نور يقذفه الله في قلب عبده ليهتدي به في معارج الدين ، ثم التقوى التي تعد خلة المقاصد الجليلة ، وذروة سنام الأمور ، وهكذا تستوفي الإمارة شروطها الأساسية فتبقى رتبة ربانية مقام المحسنين .

وكما تتسم القصيدة بجودة التركيب تتجلى فيها مزايا التصوير والبديع ، فالادعاء بأن للدين لواء وأن للتمرد نيرانا ألوان يتخيلها الشاعر ، فصدق خياله ، لأن الإسلام لا يستقيم إلا بنصب ألوية الجهاد دفاعا عن القيم العليا ، وأن الشرع لا يستقر بناؤه إلا من عرش الرحمن ، وكذلك فإن التمرد وما يثيره من عدوان وشغب وتوتر يؤدي إلى إيقاد النيران التي تجلب الدمار ، والهلاك ، وسوء العاقبة ، والمصير ، ومن بدائع الصياغة حسن موقع المقابلة لبيان الفروق الواضحة بين الأمرين المتلازمين لإقرار عظمة المختار في قوله :

وأخمدت نيران الذين تمردُوا إلى أن شروا للأكل بالنور غيهباً

وأحييت آثار الصلاح التي عفت وصيرت درب العلم للناس مذهبا

ولا تقل الموسيقى والقافية شأنا في الإبداع الجليل ، لأن البحر طويل والقافية بائية ذات صلة قوية في المدح خصوصا فيما يتعلق بالبطولة الإسلامية الحميدة وشهامتها الكريمة في إطارها المنصف العادل ، وعلى الرغم من ذلك ؛ فإن مطلع القصيدة يثير نقاشا وحواراً طويلين حيث جاء قوله :

بكل لساني بل بكل جوارحي أقول لكم أهلا وسهلا ومرحبا

يُلاحَظ أن البيت يتنافى مع الدقة ، لأن التعبير باللسان يدل على العموم أو الجنس ما وسعت العرب استعماله في سنن كلامها على سبيل المجاز المرسل علاقته الكلية وإرادة الجزئية ، وأن التحية بالجوارح نوع غير محمود نهى الله عنه ، والجوارح عادة تعني المساجد ، ولا يُدعى بها أحد سوى المولى

جل شأنه ، اللهم إلا أن بعض الدارسين قد استحسنوا هذا الأسلوب : « انتقد بعض قصار الباع أن الشيخ قد غلا في هذا البيت فلا غلو فيه لأمرين : أحدهما أن الأدباء قالوا : « أعذب الشعر أكذبه » . والثاني : أن المتكلم باللسان لا بد أن يشركه جميع البدن »[1] ، ويذهب الآخرون أن هذه الرؤية يعورها السداد والدقة لوجوه آتية :

١- إن القول « أعذب الشعر أكذبه » للأصمعي ، وقليل من الأدباء من أمثاله وليس بإطراء ، ولا يحتج به علما بأن العذوبة عنده تعني غرابة الألفاظ وحوشية الكلام ، وليس الكذب مظنة الجودة ، بل إنه معطية الخيالات الساكنة ، وأن الصدق الفني الذي يحرره الأدب الإسلامي معلما قويا في أركانه يباين الفرية والاختلاف ، وقد راضينا هذا المقصد الجليل فيما عقدناه من الكلام الطويل من منطلق الديوان .

٢- إن الكلام باللسان قوته في الأسلوب والتركيب والتصوير وجميع أبوابها تفيد من معانيها التأكيد والتقوية ، وهي تغني عن الإشارة بالجوارح ، وإلا فإن ذلك خروج بالشعر من ملامحه في الحسن والشعور إلى العملية العضلية .

٣- إن التعبير باللسان في قوله : « بكل لساني بل بكل جوارحي » غالب ما يقصد به سنة قوم في كلامها على سبيل التجوز ، وشاع عند العرب استعماله على سبيل المجاز المرسل علاقته الآلية ، ومن عظمته البلاغية القوة والكثرة والتوكيد والدقة ما يغني عن التقوية بكلمة « كل » خشية من الخروج النهائي من الحقيقة ، وليس هو القصد من التجوز والاتساع ، ولا ريب في أن ذلك توكيد استنكره العلماء البيانيون الذين يمثل قولهم ابن قتيبة :

إن أفعال المجاز لا تخرج منها المصادر ، ولا تؤكد بالتكرار ، فتقول أراد

---

(1) الإلوري ، هامش ديوانه.

الحائط أن يسقط ، ولا تقول : أراد الحائط أن يسقط إرادة شديدة ، وقالت الشجرة فمالت ، ولا تقول : قالت الشجرة فمالت ميلا شديداً ، والله تعالى يقول : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (النساء:١٦٤) فأكّد بالمصدر لمعنى الكلام ، ونفى عنه المجاز[1] .

والظاهر أن التعبير باللسان وتوكيده أسلوب يوربوي أصلا ، ولكنه هنا ينبو عن الذوق الإسلامي والعربي خصوصا فيما لاحظناه في مواقف كثيرة ، وجل الله من لا يخطئ ، ولا يذهل .

فإذا انعقدت هذه القصيدة على الهدف والغاية تعبيرا عن العواطف الجماعية فلا يعني أن ديوان الإلوري قد غفل عن المشاعر الفردية ، ولا يزال الإنسان يتفاعل معها في ظروفه المتعددة ، وغاية ما يطلب من الأديب أن يشيع في نصه شعوراً إنسانياً مفصحا عن غايات نبيلة تجاه الخلق ، والكون ، والحياة ، وهذا السمو يحفل به الأدب الإسلامي على صورة من الارتياح والانتماء ، وكل ما حق للجماعة كان ثابتا للفرد دون أن يسطو أحدهما على الآخر ، وكلاهما يعود إلى الإنسانية ما داما يشدان عنصر التلاحم بين أجزاء الكلام على السلوك الجمعي المنتظم الدقيق ، وبناء على هذا المنطلق ؛ فإن نونيته في مرثية بكره تنهض الهدف الذاتي حين صوّر الدهر إنسانا صائداً ماهر الإغارة شديد السهام ، وأنه أصاب منه أشرف المكان ، وهو المهجة التي تتدفق منها الدماء إلى أعضاء الجسم ، وأن السم قد أخذ مجرى الشريان ليعطل حركته ونشاطه فهو يقول :

الدهر سدّد سهمه ورماني ... فأصابني في أشرف الأركان

فأصابني في مهجتي وجناني ... فسرى التعاش السم في شرياني

فتوارد الأصحاب مع تريّاقهم ... من هاهنا وهنا بغير توانٍ

---

(1) ابن قتيبة ، مشكل إعراب القرآن ، ص: ١١١.

لكنمـــا الترياـــق لم ينفـــع معـــي ... بـــل زاد منـــه الســـم في الطغيـــان
فالرزء ســـهم والهمـــوم ســـمومه ... والصـــبر ترياـــق علـــى الأحـــزان
تلـــك الرزيـــة في خديجـــة ابـــنتي ... كانـــت معـــي كـــالروح والريحـــان
عاشت معي ســـبعا مـــن الأعـــوام في ... زهراتـــــها كشـــقائق النعمـــان
فإذا ببـــنتي قـــد توســـدت الثـــرى ... والجســـم منـــها مـــد للديـــدان
قد كنت أحسب أنـّـنـــي عند البـــلا ... ثبت الجنـــان وصـــحب الإيـــمان
حـــتى بليـــت بمـــوت بـــنتي هـــذه ... فتعطـــل الإحســـاس مـــن وجـــداني
فوجدت صبري لم يكـــن ثبتـــا علـــى ... هذا المصـــاب بـــل زاد في النقصـــان
فعبرت دمعا ســـاخنا مـــن محجـــري ... فعـــلا بكـــائي والعويـــل دعـــاني
فهنـــاك ناديـــت الفـــؤاد مناجيـــا ... هـــل في البكـــاء النفـــع للـــثكلان؟
يا عين لا تبكي على حكـــم القضـــا ... فجميعنـــا في قبضـــة الرحمـــان
والنـــاس مختلفـــون في ويلاتـــهم ... والكل يشـــكو مـــن أذى الأزمـــان
لـــم أنتظر في الـــدهر بعـــد مســـرة ... إلا علـــى عطـــف مـــن الحنّـــان
فالعيش هم والـــمنـــون بـــمـــرصد ... وجميـــع أعمـــالي علـــى الميـــزان
والله مطلـــع علـــى الأســـرار لا ... تخفـــى عليـــه كـــوامن الأكـــوان
يـــا راحـــم العنـــاب في أعشاشـــه ... ارحم بكائي يـــا عظـــيم الشـــان[1]

تعد القصيدة من أروع ما أبدعه الإلوري ليس في موضوعها فحسب ، بل في جميع ما قاله إذ استوفت كثيرا من خصائص أدبية ، وفنية . فمن حيث بناء الفكرة ؛ جاءت البراعة أن المنية قد اختطفت بكرة الفتية في ريعان صباها ، وأوقعته في الحيرة الشديدة ، ولم يزل أصدقاؤه يترددون عليه لتعزيته وإلهامه الصبر ، ولكنه يجد نفسه أمام القدر الجبار عاجزاً عن الاحتمال إلا البكاء

(1) الإلوري ، ديوانه ، ص: ٨ .

والدمع يجري منه شفاء لألمه ، وتخفيفا لبلواه ، وقد صور هذه اللوعة تصويراً مبدعاً حين ادّعى أن براعة الاستهلال تبين علة الرثاء والعزاء ، وداعية البكاء والدمع ، ودافعة الحزن والألم حين استهدفت بنته أيدي المنون بسهامها السديدة ، واختارتها ، وهي منه أعلى المقام ، فنالت منه المهجة مصدر الدماء ، وبه تنبض الحياة والنشوة ، ولم يزل يتألم جنانه إذ هو مدار الحركات والأنشطة ، فتعطلت منه منافذ الإحساس والشعور ، وأن أولياءه من أصحابه يتعاقبون عليه يلهمونه الصبر والسلوى ناصحين له ، ولم ينفعه ذلك ؛ لأن النكسة قد عظم بلاؤها ، وأنى يصلح الترياق إذا تفاقم السم؟

ومن الثابت أن تلك المقدمة تروج لدى الأدباء الذين يتخذون الفكر سلطانا قويا في إبداعهم ، ويستمدون موضوعهم من الاستبطان العقلي ، والتأمل الذهني حتى يفرضوا لكل نيتجة علا وأسباباً ، وللحقيقة مصادر ومنابع ، وينطلق الشاعر إلى لب الموضوع عاقدا قوله على معالم المراثي الثلاثة .

وفي التأبين عدد مناقب الفقيدة مبينا سجاياها الحميدة ، وخلالها الجميلة كخفة الرّوح ، ورقة الطبع ، ودماثة الخلق ، وتحاكي في ذلك الروح والريحان ، وإن حسن معاشرتها ولطافة صحبتها ورزانة حلمها ورجاحة عقلها وبرة سلوكها تتراءى شقائق النعمان لما تحدثه من إلف وأنس ، هكذا يفجر فراقها موجة العناء والشقاء لا يحيط بها وصف .

وفي الندب بكاها بكاء أليما فارتفع عويله ونياحه ملوّنا محنتها التي ملأت أقطار قلبه قرحا يضعف معنويته ، ويزلزل ثباته ، يكاد يجليه إلى القنوط واليأس من رحمة الحياة وسعادتها ونعيمها ، لأن البلية غلب سلطانها ، وليس كل نعمة مسلوبة بمعوضة ، وعندئذ لم يجد بداً ولا ملجأ إلا الدمع لعله يخفف جواه ، وينفس كربه ، ويثلج قرحته وكمده .

وأخيراً تخلص إلى العزاء والاعتبار بتداول الحياة والأخذ بفلسفتها في حقائق الموت وسنن الوجود معتبراً أن صروف الكون سلسلة من النوازل

والنكسات تدور كؤوسها على سائر الخلق ، ولا مرد لحكم القدر والقضاء إلا التذرع بالاصطبار والاحتمال والتسليم والرضا ، ومهما ينهم الإنسان العيش فإن الموت حسم في رقاب العباد ، وعليهم أن يعتقدوا أن رقابة الله قائمة ، فهو عالم الأسرار .

تلك الفكرة إنسانية النزعة تعبر عن عاطفة الأبوة الصادقة ، ومن يقل إن منية البنين ليست حرقة الأكباد ، ومجلبة الدموع والأحزان ، ومن لا يتمنّى أن يخلفه ذريته إذا درج إلى حيث درج الأولون ، خصوصا مكانة لأوائل والأبكار التي شغرت بعد وفاة خديجة هذه ، والبنات عادة أشد شفقة ولطفا بالآباء ، وإلا فكيف يصف أوقاتها معه .

إن سقوط النجب من فلذات الأكباد في ريعان صباهم وعنفوان شبابهم فادحة أليمة تجعل المرزوء قليل الصبر ، ضعيف التجمل ، فإذا استتر بفن القول معتمداً متواريا في وجوه من كنى ، ومجازات ، واستعارات ، حياء وخجلا ، اعتباراً واحتسابا ، ففي ظلال هذه العبارات إيحاءات تجلي حقائق مستورة ، وتبين أسرارا مضمرة ، لأن عوامل الاستحياء والاصطبار لا تقبل عن الانفعال عوضا ولا تبغي من العاطفة بديلاً .

والفكرة إذا صحيحة لا يشوبها تمويه ولا مبالغة إذ انبعثت عن تجربة شعورية قوية صحيحة ، نلقى نظائرها في مدار الكون على تعاقب الحدثان ، وأن ما لها من سمو ورقي يروج ويعظم عند تأصيل الأدب الإسلامي ، وذلك أن النص يترجم عن عقيدة الإنسان التي يمارسها في واقع حياته المتلاحقة ، ويحاول بقدر الإمكان أن يعالج ما استطاع إلى ذلك سبيلاً من قضاياها حسب التصور الإسلامي .

تلك الحقيقة تتجلى واضحة عندما أحس الشاعر بألم فقيدته ، وتفجرت دموعه موجة ماردة عنيدة ، وانطلقت قوة تعدو عدواها ، فسطت على كوامنه ،

فأصبحت أثراً خالداً يولد عناصر عديدة من المؤاثرات القوية ، ليعبر بها عن صدق العاطفة ، وجدتها ، ومثاليتها .

إن من الحقائق ما يمر ولا يحلو ، ويعاكس المقصود ، ويوجب الكريهة والغريب ، انظر كيف ضرب الإلوري على قيثاره :

فإذا ببنتي قد توسدت الثرى ... والجسم منها مد للديدان

قد كنت أحسب أنني عند البلا ... ثبت الجنان وصاحب الإيمان

حتى بليت بموت بنتي هذه ... فتعطل الإحساس من وجداني

فوجدت صبري لم يكن ثبتا على ... هذا المصاب بل زاد في النقصان

فعبرت دمعا ساخنا من محجري ... فعلا بكائي والعويل دعاني

لم تبن القبور قصوراً فتزين بأنواع الأثاث ، فتتوسد الراحلة بالثرى ، ولم توضع الأجسام في اللحاد لتكون طعمة الديدان ، ولكن المصير قد اقتضى أن يصبح خيال الشاعر تصويراً ، وكذلك فإن اقتحام كوارث الحياة والصبر على آلامها قد يرى الإنسان جسرها العسير يسير العبور ، وأنه شجاع القلب ثابت الجنان عليه ، ولا يلبث به الأمر حتى يتجلى له أن قواه قد انهارت ، وأن الفجيعة قد أورثته شكوى الزمان ، وأن عبراته لا تزال مكفكفة ، فلزمه أن يعود إلى صوابه ورشده محتسبا أجره من الله .

وواضح أن تلك النتائج يقينية تصدر عن علل وأسباب سليمة لا يعتورها زور ، ولا بهتان ، والإنسان فطري لا تزال عوامل البشرية تنتابه ، وحدثان الكون لا تخلو من ألم وأمل ، وعسر ويسر .

ويمكنك أن تلاحظ كذلك أن الفكرة تتميز بالقوة والنصاعة ، ما لا يتردد في قبولها قارئ بارع ، وهي حقائق الحياة تعبر عن سنن طبعية ، وأنّ ما اختاره قدير على حمل ما أهمله لجودة الاستيعاب وبلغ بعض أبيات القصيدة من

القوة والجدة أن ترتفع إلى ضربها أمثالا وحكما في مواقع مناسبة على مدارج الحياة ، ومنها قوله :

فالرزء سهم والهموم سمومه والصبر ترياق على الأحزان

والناس مختلفون في زيلاتهم والكل يشكو من أذى الأزمان

كما تقع بعض الأعجاز :

« فالعيش هم والمنون بمرصد »

« والله مطلع على الأسرار »

« هل في البكاء النفع للثكلان »

ثم ختم قوله بالدعاء إلى الله أن يعوضه خيرا مما سلفت ، وأن يرحم بكاءه ، وهو عظيم الشأن ، فامتن عليه بواسع رحمته ، وعوضه ذرية طيبين ذكورا وإناثا نبغ منهم ، وما زال الآخرون في طريق النجابة .

وأما أسلوب النص ؛ فإنّه محكم إحكام فكرته يتجلى عن مظاهر جميلة ، وأوّل ما يطالعنا في ذلك جودة مواقع الألفاظ بين أخواتها ، رشيقة وثرية لأداء معانيها علوقة بالنفس ، رقيقة موحية مثيرة ، انظر مواقع (المهجة ، والجنان ، والرحمة ، والأحزان ، والرزء ، والثكلان) وما تحدثه من رقة ورزانة ، وهدوء وسكينة إلى جانب مواطن (سدد ، والسهام ، والهموم ، والسموم) خصوصا كلمة (التوارد) على سبيل التعاقب بينه وبين أصحابه متفقدين أحواله ومعزين إياه لما في الكلمات من حركة وتموج توحي بأن الشاعر قد راعى في بناء النص دقة النسج والإحكام لوضع كل كلمة إزاء بعض على صورة تتلاحم أجزاؤها ، وتتآخى وحدة متشابكة .

ومن أروع الصناعة ؛ جودة تكرار الإضافة إلى ياء المتكلم مقترنة بنون الوقاية لتوضيح بؤرة الشعور ، وتعيين مركز الإصابة ، وفي التعبير بالأفعال الماضية في دقة التخير للوقعة دليل على أن النكبة قضاء قد مضى وقدر قد كتب أجله ، ومنه عظمة الانتقال والتدرج بين جمل خبرية وإنشائية مع إكثار

الأولى ، وإيثارها على الأخيرة لأن النص غني عن الإثارة والتحريك لبروز موطن الإصابة وموقع الفجيعة ، ولتحقيق قدر العاطفة وصدقها ونوعها ناسب هنا إكثار الجمل الخبرية إذ الإنشائية كثيرا ما يغلب عليها التهويل والتحريض والاستنفار ، والقصيدة في غنى عن هذه الوجوه .

ولجودة تقوية العناصر الفكرية رتب الأواخر على الأوائل ، ونزل الأبيات الأولى منزلة الحسية ، وأردفها بالمعنوية وأبرز ذلك قوله :

تلك الرزية في خديجة ابنتي كانت معي كالروح والريحان

أنزل ما قبله سؤالا تنشئه نفس المخاطب ، فكأن طالباً استفهم عما دعاه إلى البكاء ، وفرض عليه العويل ، وجاء البيت جوابا ورداً ، وفيه مغزى آخر يقوي المعنى حين أوقع الإشارة بعيدة لبعد المصاب عن تحمل المصيبة لعظمة دهائها ، وفظاعة مخيفتها ، ثم عرف الركنين على سبيل التقرير بأن هذه الرزية لم تستهدف سوى الفقيدة ، وحين اختار الجار والمجرور « في خديجة » لتعيين موطن التمكن والسيطرة الكاملة وبلوغ الغاية القصوى من الاستقرار في القبض والأخذ بالشيء ، ولا يتأتى له منفذ للفرار ، وفي التصريح باسم المتوفاة ثم الكناية على سبيل الإبهام بعد الإيضاح دليل على مهارة الشاعر في تنويع الكلام ، لأن الاقتصار على شيء واحد يعطل الكلام ، ويوقع عجز البيت جملة حالية مفسرة مدى العلاقة والحنان بين الأبوة والبنوة من تراحم وتعاطف .

أما التصوير الفني ؛ فقد عمد الشاعر إلى عدد من الأنماط الرائعة التي خلعت على النص حركة ونشاطاً لتجسيد المعنى وإلباسه ثوب الحقيقة والتدرج بينهما حتى تتجلى الأمور ، وتعظم الحقائق ، ومن ذلك قوة التشبيه فيما يلي :

والرزء سهم والهموم سمومه والصبر ترياق على الأحزان

فالعيش هم والمنون بمرصد وجميع أعمالي على الميزان

..... كانت معي كالروح والريحان

وبدائع الاستعارة في قوله :

الـــدهر ســـدد ســـهمه ورمـــاني فأصـــابني في أشـــرف الأركـــان

وقوله :

« قد توسّدت الثرى »

وقوله :

لكنمـــا الترياـــاق لم ينفـــع معـــي بـــل زاد منـــه الســـم في الطغيـــان

والمجاز العقلي في قوله :

فهنـــاك ناديـــت الفـــؤاد مناجيـــا هـــل في البكـــاء النفـــع للـــثكلان؟

وقوله :

« يا عين لا تبكي على حكم القضا »

والكناية في قوله :

« صاحب الإيـــمان »

وقوله :

« صاحب الجنان »

وقوله :

تلـــك الرزيـــة في خديجـــة ابـــنتي كانـــت معـــي كـــالروح والريحـــان

وقوله :

« وجميعنا في قبضة الرحمان »

وعندما عمد إلى وجوه من التجميل المعنوي ، ومن الطباق والمقابلة في قوله : « الرزء سهم ، والهموم سمومه »

وقوله :

فالعيش هـــم والمنـــون بـــمرصـــد وجـــميع أعمـــالي علـــى الميـــزان

وجودة التصريع في قوله :

الـــدهر ســـدد ســـهمه ورمـــاني فأصابنـــي في أشـــرف الأركـــان

وروعة الجناس في قوله :

« عاشت معي كالروح والريـــحان »

ونحو ذلك قوله :

« والهموم ســـمومـــه »

ودقة الإرصاد في قوله :

« صاحب الإيـــمان »

« ثبت الـــجنـــان »

« والعويـــل دعانـــي »

« علا بكائي »

« وشقائق النعمان في زهراتـــها » .

كلها صور فنية جيدة تؤتي الجو العام من المعاني قوته وتهب الخيال جناحه للتحليق والتحريك ، فالشاعر عندما رسم الدهر بطلا شديد البطش والقوة شاكي السلاح مجيد الرمي نابها يمن يستهدفه مصيبا أدق المواطن وأعلاها ، وهو بهذا ينفذ قضاء الله وقدره على من يشاء من عباده ليقضي أجله المحتوم ، وعند تصوير نفسه صيدا مستسلما للحكم والقضاء والقدر ، وأنه قد أرداه السّلاح الجبار مصروعا ، فأنهكه الوقع غير ملتئم الجروح ، فالقدر إذًا قوة هائلة ماردة عنيفة لا قاهر يقهرها ، ولا دافع يدفع قضاءها إلا الإذعان والخضوع لله تعالى ، وإبداء كل ما يعبر عن عوامل الحزن والتألم من بكاء ، وصبر واحتمال ، لأن الجزع لا ينفع ، والكيد لا يجدي ، وأن مالك القوة المدبر أحق بملكه يتصرف فيه كما يشاء ، وأن الضعيف المملوك مهما حاول وكابد متنازعا لمالكه فلن يقدر عليه ، ولا يظفر به ، ولن يفلح في حيله إلا الإذعان بالصبر ، والمؤكد أن هذه الروائع البديعية قد اهتدى إليها الشاعر من واقع تجاربه العديدة في معتركات الحياة ولاحتكاكه بكثير من صروف الحدثان خصوصا كيف رتب هذه الصور البيانية .

وأما الجانب الموسيقي ؛ فإن الإيقاع الصوتي يضفي على النص ظلالا وارفة من إيحاءات توقظ الشعور ، وتحرك الوجدان ، فالبحر كامل ذو ميزة قوية لإحداث العاطفة ، وتحريك الانفعال على الرغم مما يكتنفه من رزانة ووقار ، فإنه لا يقوى على إمساك البكاء ومنع الدموع ، وكذلك النون وما فيه من حسن النغم وطول النفس في المد يجعل العويل شديد القوى ، وعظيم الأثر ، فإذا ثبتت هذه الخصوصية في الموسيقى الخارجية ؛ كان حقا للإيقاعات الداخلية أن تقع ذات تأثير من فحوى كثرة التكرار ، والتجنيس ، والترصيع ، وتعدد وجوه المقابلة ، والطباق ، لأن الإقناع الصوتي وظيفة أساسية في تكوين الصورة الفنية متكاملة في جميع الخصائص التي يحويها النص .

هكذا ظل الشاعر يتعادل بين حقائق الفكر ، والفن ، ولا يرى ضرورة إيثار أحدهما على الآخر مشترطا التصور الإسلامي .

* * *